كلمة أولى (١)

منذ مدة والبعض من رجال الدين المعروفين، الذين يستفيدون من المنابر الرسمية في إيران، يقولون: " إن طرح موضوع القراءات المتعددة للدين هو عمل من وسوسة الشيطان." أو " أنه سياسة أمريكية. أو أن القصد منه توجيه ضربة لأسس النظام والثورة.

من الواضح أن موضوع «القراءات المتعددة للدين» أصبح له قراءات متعددة أيضًا.

لا أعتقد أن معرفة الدوافع وقراءة النوايا قد توصل إلى نتيجة، فكل شخص أو كل مجموعة يمكنها اتهام الأخرى بسوء النية، وهذا " الدور " لا يوصل إلى شيء. مما يدعو إلى غض النظر عن ذلك، وعليه فإن بعض الذين يطرحون رؤًى مختلفة لموضوعات دينية ولديهم وجهات نظر مختلفة حول بعض منها، من الممكن أو من المحتمل أن يكون كلامهم آتيًا من باب الخير والمصلحة تجاه الدين والسلطة والأمة والثورة. وحتى إذا كان لدينا القدرة العلمية والفكرية لانتقاد كلامهم، وإمكانية التوصل إلى رؤية واحدة فقط مع إمكانية شرحها بإتقان. فلا يمكننا أن نطلب من الآخرين ألا يفكروا أو يبحثوا أو يتحدثوا حول الأصول والمفاهيم والموضوعات الدينية. لا يمكننا أن نفرض عليهم القبول بكلام واحد وسليقة واحدة. حتى إذا استخدمنا وسائل القوة والسلطة وإمكاناتها لكي نمنع طرح كلام غير دقيق. فإننا نعلم وندرك بوضوح أنه في زمن تشكل فيه " الاتصالات " أبرز مميزاته، فإن مرحلة قيادة وتوجيه الأفكار قد ولت وانتهت. لأن المرحلة هي مرحلة الإقناع لا الإسكات. والتمتيم على نظرية أو فكرة أو كلام

لا يؤدي إلى كبتها. فهل يمكن أساسًا أن ندخل المخالب إلى أذهان أهل الفكر ونمنعهم عن التفكير؟

ولقد أورد المرحوم آية الله أحمد آذري قمي في معرض الرد على عدم إقرار انتخابه في مجلس الشورى (الدورة الثالثة) ملاحظة مهمة جدًا خصوصًا أن المعارضين له قالوا إنه عارض إقرار بعض مواد الدستور عند مناقشتها عام ١٩٧٩م خاصة المادة المتعلقة بالبلديات. فقال: إن هذا الكلام صحيح وغالبية مواد الدستور قد أقرت بالأكثرية وليس بإجماع الآراء. وأنا كنت من المعارضين لبعض المواد ولقد أبديت وجهة نظري في حينها، فهل يستطيع الإنسان أن يهمل أفكاره ويبعدها عن ذهنه. أذكر، والكلام للقمي، أنه عندما ذهبت إلى الحوزة العلمية في النجف الأشرف لمتابعة الدراسة أدرك أحد الطلبة الذين أعرفهم إتقاني للغة الفرنسية، فقال لي بحرقة وقلق: أتتقن اللغة الفرنسية وتأتى إلى النجف؟! قلت: ماذا عليّ أن أفعل الآن؟! قال: " يجب أن تنساها وتنسى أفكارك بها ". وكيف يمكن أن نتوقع من أحد المفكرين أن يكتم رأيه ولا يظهره؟ هل هذا أمر ممكن؟ وعلي فرض أنه ممكن، هل هو مفيد وما المصلحة فيه؟ ألا تكفي تجربة الكنيسة في القرون الوسطى وتجربة الاتحاد السوفياتي بقمع وقلع أهل الفكر؟ إلى متى يجب أن نستمر في عدم الاعتبار من التجارب والدخول في تجارب جديدة نتائجها معروفة مسبقًا؟ وقد قال حافظ:

لم أستفد من كل شيء جربته من جرب المجرب حلت به الندامة

إن الذين يرفضون إمكانية وجود رؤًى جديدة لبعض المسائل الدينية في الوقت الراهن، قلما تجدهم يناقشون الأصول والمفاهيم. وكما أشرت فهم يشابهون إلى حد كبير أرباب الكنسية في العصور الوسطى إذ راحوا يفتشون ويقرأون عن النوايا مستفيدين من لغة اللعن والتكفير.

وبما أن هذا الموضوع أو المبحث قد ارتبط بـ " السياسة " و "السلطة" فقد أوجد توترات سياسية أو ما يسميه البعض اليوم بـ "الغيرة الدينية" وهذا المفهوم أيضًا لم يوضح بشكل صحيح من قبلهم، إذ ما هو الفرق بين " الغيرة الدينية" و"الحمية الجاهلية " و " العصبية القبلية أو القومية أو الحزبية ".

وكمقدمة للبحث أشير إلى كلام الإمام الخميني ـ رضوان الله عليه ـ في تفسير سورة الحمد:

" إنه من الحيف أن مجموعة من أهل العلم ـ وهم أناس على صلاحهم وتقواهم ـ يبقون في معزل عن مناقشة وتناول بعض المسائل الدينية.

كيف يمكن لبعض الحوزويين من طلاب العلم حرمان أنفسهم من الفلسفة التي هي أمر عادي، وصولاً إلى المسائل الاخرى. وأساس هذا الأمر أنهم لم يدركوا مقاصد بعضهم البعض، وعدم الإدراك هذا أوجد هذا الكلام، ولو كانوا أدركوا مقاصد بعضهم البعض الآخر لما كان بينهم أي نزاع؛ لأن كل واحد منهم لا يعرف الحق الذى عند الآخر ولو أدرك ماذا يقول الآخر لما أنكر عليه قوله، فكل ينكر ما يقول الآخر من دون معرفة قوله، ولو أدرك أن أزمته تكمن في عدم فهم بعض التعبيرات غير الواضحة لما اتهمه بالكفر". (١)

إن المشكلة الرئيسية لدى الأشخاص الذين يتهمون الآخرين بعدم الإسلام، من وجهة نظر الإمام ورأيه تكمن في عدم اطلاعهم على ماهية وحقيقة كلام الآخرين. فيعمدون إلى الاستنتاج بأسلوب عصبي ومتوتر دون إفساح المجال أمام صاحب الكلام كي يوضح صيغ ومفاهيم ومعاني كلامه، وهو ما نلحظه في الكثير من أزماتنا السياسية والاجتماعية التي نمر بها. كأزمة المقال الذي نشر في دورية " موج "، وأيضًا سلسلة الأزمات الأسبوعية والشهرية والفصلية التي مررنا ونمر بها، وقد قال (أحمد) شاملو: " نحن دائما ندور في حلقة مفرغة، ويتعاقب تكرارنا للموضوعات التى مللنا تكرارها ـ كتعاقب الليل والنهار ولا زلنا علي هذه الحال!."

إننا ومن خلال البقاء دومًا في حالة الدوران نمعن في الخسارة وإضاعة الفرص الثمينة، غارقين في فقر معرفي. وكأننا نضع السكين على رقاب بعضنا البعض الآخر، ونستغل مجالس العزاء الحسيني لنصب جام غضبنا على أشخاص لا نوافقهم الرأي والعمل.

ليست الجهالة والجمود والجنون فقط عند «الطالبان» الذين تعاملوا مع

تماثيل بوذا في باميان بلغة القذائف والدبابات والكاتيوشا، بل إن لها بعدًا آخر أيضًا أطل برأسه عبر التوترات العنيفة مرة أخرى من خلال محاولة اغتيال (سعيد) حجاريان، وكذلك من خلال قتل كُتّاب ومفكرين، قام بها أفراد لم يتجاوزوا مقدمات المعرفة الدينية، ولا يمتلكون سوى بعض مفردات المدائح والمراثي الشفاهية وغير الموثقة، وجعلوا منها إطارًا لتعريف الدين. وأمام هذا الواقع، كيف يمكن التعامل مع هذا النسق من الأشخاص والتوافق معهم حول أي استنتاج ديني. وهم الذين يعتبرون أي شخص لديه وجهة نظر مغايرة فإنه متآمرًا ويعاني من وسوسة الشيطان أو تحت تأثير السياسة الأمريكية ؟!

إن نظرة الإمام الخميني وفكره وقراءته للدين تختلف عن تلك التي لدى العلماء والمجتهدين الآخرين.

والسؤال هنا، لماذا قامت الثورة الإسلامية في هذا العصر على الرغم من أن القرآن الكريم والأحاديث والمراجع والمرويات كانت في متناول جميع المجتهدين خلال القرون الماضية الأخيرة؟ إضافة إلى ذلك، فلقد شاهدنا الإمام الخميني في فترة قيادته كان يمتلك وجهة نظر وقراءة خاصة للمسائل، وقد عبر عنها بصراحة ووضوح، وكما قال فإنه لم يكن قلقًا من " الحمقى المتظاهرين بالقداسة ورجال الدين الأميين ".

وهنا أشير إلى بعض النماذج من آراء واستنتاجات الإمام في هذا الخصوص:

١ ـ لقد كتب آية الله محمد حسن قديري رسالة إلى الإمام في شهر (مهر ١٣٦٧هـ/ أكتوبر ١٩٨٨م) وتحدث فيها عن موقفه من رأي الإمام حول الشطرنج والموسيقى (الناي) وقال بصراحة:" العزف على الناي حرام إذا كان آلة خاصة أو مشتركة، ولعب الشطرنج حرام إذا كان آلة قمار أو لم يكن" (٢)

ومع تأكيده على احترامه وتقديره لمكانة آية الله قديري العلمية فقد رد الإمام الخميني قائلا:

" لم اكن أتوقع من عالم مجتهد مثلك أن يكون هذا رأيه وأن ينسبه للإسلام،

وأنت تعلم أنني أكن لك احترامًا خاصًا، لكنني أنصحك نصيحة أبوية، هي أن تجعل الله فقط نصب عينيك وأن لا تقع تحت تأثير المتظاهرين بالقداسة ورجال الدين الأميين؛ لأنه إذا كان ثمن الجهر بالحكم الإلهي هو زعزعة مكانتنا لدى الحمقى من المتظاهرين بالقداسة ورجال الدين الحمقى، فمن الأفضل أن يحدث ذلك قدر الامكان " (٣)

وفي رسالة أخرى كتبها الإمام الخميني في (١٢ مهر ١٣٦٧هـ) لآية الله قديري، ومع التجليل لمقامه العلمي قال:

" يجب علينا أن نسعى لكسر أسوار الجهل والخرافة حتى نصل إلى النبع الزلال للإسلام الصافي. وإن أكثر الأمور غربة في عالمنا هذه الأيام هو الإسلام، وإن نجاته بحاجة إلى ضحايا، فادعُ لي أن أكون إحدى هذه الضحايا». (٤)

٢ ـ لقد أشار الإمام في البيان الذي وجهه إلى رجال الدين والمراجع والطلاب وأئمة الجمعة والجماعة، والذي بات يعرف بمنشور رجال الدين، إلى ملاحظات مهمة حول اختلاف الاستنتاجات والآراء. (٥)

٣ ـ في بيان التعزية الذي وجهه الإمام الخميني بمناسبة وفاة المرحوم آية الله خاتمي إمام جمعة يزد، قال: " لقد أفنى عمرًا طويلاً في محاربة التعصب والرجعية وتصلب الرأي". (٦)

الشواهد كثيرة وقد تطول في هذا الإطار، لكن ما يتضح لنا منها هو وجود أشخاص كانت لديهم استنتاجات وآراء مختلفة حول الدين، وأن اختلاف آرائهم ورؤيتهم لم تكن عن سوء نية أو تآمر.

واختلاف الآراء هذا والاستنتجات المختلفة من الدين، لا تعتبر موضوعًا جديدًا، فلقد كانت مدار بحث وتحقيق دائمًا، خصوصًا المسألة المتعلقة بأي الكلام هو كلام الله، وأي الفهم لكلام الله هو الفهم الصحيح والأرجح.

وهو ما تعبر عنه الآراء المختلفة في رسالة " أوتيفرون " ونقاش سقراط

وأوتيفرون حول أي الأعمال محببة أكثر لدى الآلهة وأي الأعمال التي تثير غضبهم؟ ما هو التدين؟ وما هو الإلحاد؟[٧]

ومن حوار سقراط و أوتيفرون، يتبين لنا وجود استنتاجات أو قراءات مختلفة لكلام الآلهة، وأن التعدد في الاستنتاج كان مطروحًا أيام سقراط.

إضافة إلى ذلك فإن مباحث سقراط تؤكد أن البشر في البداية، كانوا يعتقدون انهم وصلوا إلى نبع اليقين بمعرفتهم الجيدة للمسائل والمفاهيم، لكن مع قليل من التأني وطرح سلسلة من الأسئلة، يتضح أنهم أهملوا في الكثير من المفاهيم التي اعتبروها بسيطة وسهلة.

يقول سقراط لأوتيفرون:

"..... قل لي ما هو التدين. فالجواب الذي أعطيته لم يكن كافيًا، وقد قلت إن الذي تفعله أنت هو مطابق للدين... طلبت منك أن تفسر لي (التدين) نفسه وأن تقول لي ما هو، بحيث إن كل شيء يتطابق معه سيكون موافقا للتدين. وقد أكدت سابقًا أن للتدين والإلحاد صورة واحدة، وأن كل شيء على صورة التدين فهو مطابق للدين، وأن كل شيء على صورة الإلحاد فهو مخالف للدين...فأظهر لي إذًا تلك الصورة حتى أقيس بناء عليها تصرفاتك أو تصرفات أي شخص آخر، حتى أستطيع اعتبار ما وافقها موافقًا للدين أو العكس مخالفًا له ".

فيرد عليه أوتيفرون قائلا:

«إن كل ما تحبه الآلهة فهو موافق للدين، وكل شيء لا تحبه فهو مخالف له». وعلى الرغم من أن نقاش سقراط و أوتيفرون لا يصل إلى نقطة واضحة وجلية بسبب اعتقاد اليونانيين بآلهة مختلفة ومتعارضة ومتنوعة، فإنهما رغم ذلك يرجئان النقاش إلى يوم آخر، لكن نقاش سقراط بحد ذاته يعد دليلاً على سعي الإنسان الدائم والمستمر في البحث من أجل التوصل إلى الهدوء وطمأنينة القلب والروح والكمال الإنساني، وبتعبير" كانت ": التوصل للإجابة عن أسئلة الروح الأربعة وهي:

١ ـ ماذا يمكن أن يكون الإنسان؟

٢. ما الذي يجب أن يقوم به؟

٣ ـ بماذا يمكنه أن يأمل؟

٤ ـ ما هو الإنسان؟ (٨)

وقد عبر مولاي (جلال الدين الرومي) عن ذلك متسائلاً متأملاً:

ما غاية حياتى؟

بداخلى حنين إلى موطنى الأول وأنا في أرض الابتلاء أعانى الغربة.

فأين المفرّ؟

استمع للناى كيف يقص قصته؛ إنه يشكو آلام الفراق ومحنة الاغتراب يقول:

إنني منذ قطعت من منبت الغاب، والناس رجالاً ونساءًا يبكون لبكائي، إنني أنشد صدرًا مزقه الفراق، حتى أشرح له ألم الاشتياق،

فكل إنسان أقام بعيدًا عن أصله يظل يبحث عن مكان وصله، لقد أصبحت في كل مجتمع نائحًا، وصرت قرينًا للبائسين والسعداء، وظن كل إنسان أنه قد أصبح لى رفيقًا، ولكن أحدًا لم ينقّب عما كَمَن في باطنى من الأسرار، وليس سرّى ببعيد عن نواحى، ولكن أنَّى لعين ذلك النور أو لأذن ذلك السمع الذي به تدرك الأسرار؟ وليس الجسم بمستور عن الروح، ولا الروح بمستور عن الجسم، ولكن رؤية الروح لم يؤذن بها الإنسان! وإن صوت الناى هذا نار لا هواء، فلا كان من لم تضطرم في قلبه مثل هذه النار...

وكما نعلم فإن المحكمة اليونانية في النهاية أصدرت حكمها بإدانة سقراط وقتلته. واتهمته بإفساد الشبان، وأنه لا يقيم وزنًا للقيم الأخلاقية، أما الكلام الأخير الذي قاله سقراط وأورده أفلاطون في رسالة (أبولوجي): "حان الوقت كي أسرع لاستقبال الموت، أما أنت فاذهب وراء الحياة. فلا أحد منا يعلم أى طريق أمامه هو الأفضل، لا يعلم ذلك سوى الله " (٩)

بعد ألفي عام على هذا الكلام، جاء صدر المتألهين ليكتب عن سقراط

بإعجاب وتقدير، وتوقف عند أفكاره، معتبرًا سقراط أحد أعمدة الحكمة وقال:

قدس الله نفوسهم وأشركنا الله في صالح دعائهم وبركاتهم فلقد أشرقت انوار الحكمة في العالم بسببهم وانتشرت علوم الربوبية في القلوب لسعيهم" [١٠]

ما هو الذنب الذي اقترفه سقراط حتى أصدر قضاة اليونان عليه حكمًا بالموت؟ لم يكن ذنبه سوى الكلام. فلقد رفض وجهة النظر الرسمية السائدة في أيامه ولم يقبلها. أو أنه كان يطرح رؤية أخرى عن الاعتقاد والإيمان الديني، وقد أشار صدر المتألهين إلى الكثير من آراء سقراط في كتابه "الأسفار"[١١]

وقد استشهد الإمام الخميني بصدر المتألهين في الرسالة التي بعث بها إلى (الزعيم السوفييتي ميخائيل جورباتشوف، وقد خاطبه بالقول:

" اطلب من الاساتذة الكبار أن يعودوا إلى الحكمة المتعالية لصدر المتألهين رضوان الله تعالى عليه وحشره مع النبيين والصالحين "[١٢]

وقد اعتبر الإمام في هامش صحيفة النور أن «صدر المتألهين» يعد من مفاخر العصر الصفوي. والملاحظة اللافتة أن هذا الفيلسوف والحكيم والمفسر المبتكر قد طرد من الحوزة العلمية في مدينة أصفهان! وقد أمضى سنوات طويلة من العزلة في قرية " كهك " بالقرب من "قم" بسبب اختلافه ومعارضته للقراءة الرسمية للحوزة العلمية والدولة في عصره، وقد أشار الملا صدرا إلى جانب من أوضاع عصره في مقدمة كتابه " الأسفار ".. وكما نعلم فإن البعض ينفي في الأصل المعرفة الفلسفية، ويستعمل في نفيه تعابير شديدة، ويعتقد أن المشرب الفلسفي أو وضع حلول جديدة لمشكلات دينية قديمة أو معاصرة تضر بالإسلام.

أذكر أنني في شبابي كنت أتردد على جلسات تفسير القرآن التي كان يعقدها في مدينة «آراك» آية الله السيد على مير يحيى والمشهور باسم "آقا على "، وفي إحدى هذه الجلسات تطرق الحديث إلى تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي، فقال السيد: أدعو الله أن يتجاوز عن ذنوب السيد الطباطبائي؛ لأنه كتب مثل

هذا التفسير ! وأذكر أن الفم قد أصابني من جراء كلامه فطرحت الموضوع على آية الله إمامي خوانساري، الذي تريث قليلا ثم قال: أدعو الله أن يتجاوز عن ذنوبي وذنوب أمثالي وعمن يقول عن آية الله الطباطبائي مثل هذا الكلام.

والآن ! وبعد مرور أكثر من ثلاثين سنة على ذلك الوقت، يرحم الله جميع هؤلاء الأشخاص الذين كان لديهم رؤى واجتهادات متعددة ومختلفة للدين. إذ إن بعضهم كان يظن أن المعرفة الفلسفية تشكل منطلقًا جيدًا للترويج للدين، والبعض الآخر يظن أن الفلسفة تؤذي الإسلام الصافي وتشوهه، وقد عبر الشاعر الخاقاني عن ذلك بالقول:

حصان الدين من أصل عربي، فلماذا تدمغه بوشم اليونان؟

لا تضع الفيلسوف في مكان رجل الدين، ولا تضع الوضيع مكان الشريف.(١٣)

ثم أليس غريبًا على الخاقاني الذي يعتبر ملتصقًا بالدين والشريعة ويسعى لاحتلال مكانة بين صفوف الفقهاء، والذي يعد أيضًا مخالفًا ورافضًا للتوجهات الشيعية أن ينشد:

تكفيني أن تكون الخمارة (بنت الكرّم) قبلتي، لأني هارب من أم القرى.

وفي الإجمال، فإن الإشارة إلى سقراط وصدر المتألهين، وكذلك إلى الخاقاني هي للقول بوجود قراءة فلسفية للمسائل والموضوعات الدينية، ومن الطبيعي أن لا يقبل البعض بهذه القراءة.

فقراءة الخاقاني ترى أن علم الفلسفة هو علم الكفر، ولا يجب خلطه مع علم الدين، على خلاف ما فعله الإمام الصادق في حديثه عن التوحيد المشهور بالتوحيد المفضل؛ إذ نرى أن محور ومنشأ الكثير من استدلالاته في إثبات الصانع كانت براهين عقلية وفلسفية، إلى حد ذكر أرسطو بالاسم، نقل استدلاله في موضوع نقده لطائفة من القدماء الذين أنكروا القصد والتدبير في نشوء الأشياء.(١٤)

نشاهد فيما نقله المفضل أيضًا عن الإمام أسلوبًا عقلانيًا وفلسفيًا في

معرض رده لبعض استدلالات المعارضين، وأيضًا في الموضوعات القطعية والإيجابية. مثل البحث في الظواهر من أربعة جوانب. بحث وجود الظاهرة أو عدمه؟ الجوهر والذات ظاهرة أي شيء؟ الكيفية والصفة لأية ظاهرة؟ البْحث حول الدليل الوجودي للظاهرة. ولماذا؟ (١٥)

وكذلك إشارة الإمام الصادق الصريحة إلى أن اليونانيين كانوا يسمون العالم بـ " القوسموس " وهو الاسم الذي يطلقه الفلاسفة ومدّعو الحكمة على العالم.(١٦)

الملاحظة المهمة والتي تبعث على التفكير هي أن المفضل كان عند سماعه لكلام منكري الدين والتوحيد، يتميز من الغيظ وينطوي على نفسه، فقد قال ابن أبي العوجاء لأحد الأشخاص الذي مدح نبي الإسلام ﷺ في مجلسه " دع ذكر محمد ﷺ، فقد احتار عقلي فيه وضاع فكري في عمله، ويتحدث «ابن أبى العوجاء» عن بدء الخلق وينكر وجود الصانع والمدبر. ويقول إن الظواهر قد أوجدت نفسها من دون الحاجة إلى صانع ومنظم. هكذا كانت الدنيا وهكذا ستكون.

فيقول المفضل بغضب: " يا عدو الله، لقد اتخذت الإلحاد في دين الله؟ تنكر وجود الله الخالق و..."

فيقول ابن أبي العوجاء في الرد عليه:

" إذا كنت من أهل العلم والكلام، فتكلم، فإذا كان لديك الحجة والبرهان كان لزامًا علينا أن نتبعك، لكنك لست من أهل الكلام لذلك فلا كلام معك. وإذا كنت من أتباع الإمام الصادق ، فهو لا يتحدث معك كما يتحدث معنا! وهو لا يجادل مثلك. فهو يسمع من كلامنا أكثر مما سمعت. ولا يقول في حديثه معنا كلامًا كبيرًا أو بهتانًا. وفي الرد علينا لا يلجأ إلى القوة والتعدي، صبور وعبقري وهادئ ومطمئن..." (١٧)

هذا أسلوب الإمام الصادق مع الذين كانت لديهم قراءة معادية للدين ومعادية

للتوحيد، ومن ناحية أخرى، نرى أن براهين واستدلالات الإمام الصادق كان لها وجه فلسفي وعقلاني، وهو يستند ويستدل بكلام الفلاسفة والحكماء المعروفين، وهذا الأسلوب لا يعتبر غير ديني أو كما يراه البعض اليوم أنه معادٍ للدين، وفي الواقع أن التساؤل حول الوجود والكينونة وأسباب الظواهر هو جزء من الهوية الإنسانية. سلم ارتقاء الكمال البشري العلمي والمعنوي.

إن الحيوانات التي ليست أهلاً للأمور العقلية، ولم تتبلور فيها خلاّقيّة الفكر والعمل، تعيش منذ ملايين السنوات في دائرة حياتها الطبيعية والحيوانية المغلقة، ولم ولن نشهد أي نوع من الإبداع في محيطها.

إن الصعوبات التي مرت على تاريخ الفكر الديني أقفلت سبل التفكير، وجعلت من السؤال بدعة، وكان التوقع أن يكون المجتمع والناس مجرد تابع محض دون أي اعتراض، وهذا ما دفع مفكرًا متأملاً مثل أبي العلاء إلى أن يضع الدين والعقل في مقابل بعضهما البعض الآخر ويقول: اثنان أهل الأرض عاقل بلا دين والآخر دين بلا عقل.

إن التأكيد على المعرفة العقلية، والتي تتكرر دائمًا في القرآن الكريم ويوصي بها، من البديهي أن تجد لنفسها أرضية منطقية وفلسفية. لأنه من غير الممكن اليوم الاجتهاد في النصوص الفقهية دون الاعتماد على علم الأصول.

إن فطرة الإنسان وهويته، تجعلان منه باحثًا عن جوهر الظواهر، فنبي الإسلام الذي هو أسوة حسنة كان في بحثه عن جوهر الأشياء يسعى إلى رؤيتها وإدراكها على ما هي عليه. فإذا ما كان وضع علماء الدين في عصرنا مشابهًا لما كان عليه في زمن الكندي حيث قالوا: " إن اكتساب العلم والمعرفة حول حقيقة الأشياء هو كفر " فما الذي يجب علينا فعله؟ ومن الطبيعي أن يقول الكندي عن علماء عصره:

"إنهم من أجل أن يحافظوا على المقام الذي وصلوا إليه بغير حق، وشغلوه من دون استحقاق، وفقط من أجل الاتجار بالدين واكتساب المال والسلطان، يعادون أولياء الله"

يبدو مما مر سابقًا أن حكم وموقف أحد الطرفين من الآخر، كما هو الحال في الكلام عن علمـــاء الدين والكندي، ينبني أو ينطلق من الحكم على دوافع الطرف المقابل. فإن كان أسلوب الكندي عنيفًا وقاسيًا فما كان ذلك إلا لجذب الانتباه لكلامه، وقد استثاره في المقابل علماء الدين في عصره، الذين رأوا في علم الفلسفة كفرًا دون تقديم علة مقنعة.

وتلحظ أن الكندي عندما يصفهم بردىء الصفات فإنه يُلمِح من مفهوم كلامه إلى ولايته هو حيث يرى نفسه في صفوف أولياء الله، ويقول عنهم:

" رجال الدين فهموا الفلسفة فهمًا سيئًا، فضلاً عن أنهم يتاجرون بالدين ويتكسبون، ويعتبرون أهل ملتهم مدار الحق والحقيقة، وضيق عقلهم وفكرهم تجاه طرق الحقيقة، وتسلط الحسد والغيرة النجسة على أرواحهم الحيوانية كمثل الحجاب الذي يمنع من وصول نور الحقيقة إليهم. ورغم كونهم يتاجرون بالدين إلا أنهم يفتقرون إليه؛ لأن الذي يبيع شيئًا لم يعد يملكه بعد بيعه" (١٨)

ويعمد يعقوب بن إسحاق الكندي في الكثير من موضوعات رسائله الفلسفية، وخصوصًا في الرسالة التي يفسر فيها الآية الكريمة: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ (سورة الرحمن، الآية ٦) إلى توضيح دافعه الديني واعتقاده بأن الكلام الإلهي الذي نقله النبي هو كلام صادق ومفهوم ومعلوم ومعقول من زاوية المعايير العقلانية، وأن مكذبي هذه الآيات هم المحرومون من الصورة العقلانية ولديهم صورة الجهل.(١٩)

هدف الفلسفة الحقّة هو معرفة الحق في البعد النظري وكذلك العمل بالحق في البعد العملي، ويعتبر أتباعها أن الفلسفة الأولية من أشرف الفلسفات التي تبحث حول الحق الأول الذي هو علة كل حق أو هو كل الحقوق. (٢٠)

لا شك أن الرؤى التي تتعامل مع الفكر وتفني شموعها لتنير طريق التفكير مختلفة كثيرًا عن تلك التي تتمسك بظاهر أي كلام أو أية آية أو رواية، وتعتقد أن فهمها السطحي للآية أو الحديث هو كل الحقيقة، وتعتبر أن الذين فكروا كثيرًا، وطووا مختلف الطبقات ولم يقفوا في سجن العبارة، بل وصلوا إلى

الإشارات واللطائف والدقائق، هم على طريق الكفر وستكون عاقبتهم جهنم !؟ ومن الواضح أن قراءة إنسان بسيط وسطحي للقرآن الكريم تختلف عن قراءة إنسان من أهل الفكر.

لقد أصر أحد العلماء المعاصرين ـ وهو مكفوف البصر ـ على وجوب الالتزام والتوقف عند ظاهر الآيات حتى لا نبتلى بالتحريف والتأويل. يرى البعض أن التأويل يساوي التحريف، كمثل المحقق والعالم الكبير الأستاذ محمد رضا حكيمي الذي كتب يقول " إن التأويل في الحقيقة أو الواقع هو نوع من التحريف، تحريف معنوي في الكلام إذا قام به أي شخص" (٢١)

وفي الرد على موقف العالم الضرير، قرأ من يحاوره الآية القرآنية الكريمة ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾ (الإسراء، الآية ٧٢): وطلب منه أن يفسرها له، فهل سيكون العالم الأعمى في هذه الدنيا أعمى كذلك في الاخرة ؟!!.

من البديهي أنه يوافق على أنه لا يمكن التسليم هنا بظاهر الآية، وأن الضرورة تفرض الالتفات إلى باطنها، ويمكن القول بأن جميع مفسري القرآن الكريم، من أهل السنة والشيعة، في أي بعد تفسيري كان، فلسفيًا أو أثريًا أو تاريخيًا أو روائيًا أو أدبيًا أو... فجميعهم يفسرون هذه الآية على أن المقصود من الأعمى هو الشخص الفاقد للبصيرة، وليس المقصود منها العمى الظاهري، والبصيرة هنا تعني عين القلب، وتختلف عن عين الرأس ـ البصر التي ندرك بها العلاقة والمسافة بين الظواهر المادية، وبالبصيرة ندرك العلاقة والنسبة بين المفاهيم والمعاني، أي أن الذي لا يمكن رؤيته بعين الرأس نراه بعين القلب والبصيرة:

«افتح عين القلب حتى تبصرالروح (الحقيقة) لترى هي الذي لا تشاهده»

بعض علماء السنة أو الشيعة، وهم لحسن الحظ ليسوا عميًا، بل يبصرون، لكنهم ما زالوا داخل السور الظاهري والصوري للآيات والروايات، وقراءتهم لا تتجاوز أو لا تبتعد عن صورة الألفاظ.

لقد سنحت لي الفرصة مؤخرا، أن أطلع على مجموعة فتاوى المرحوم ابن باز التي طبعت في ستة مجلدات، وقد بحثت فيها حول رأيه وتعامله كعالم سلفي فيما يتعلق بالمفاهيم والمباحث والمصادقات الجديدة للأحكام التي نواجهها اليوم في العصر الحاضر.

لقد شاهدت موضوعًا على جانب من الأهمية لدى المرحوم ابن باز، كتبه قبل نحو أربعين عامًا في رد على استفتاء لأحد علماء " كراتشي ". وقد جاء هذا الاستفتاء عبر العلامة الشيخ محمد بن يوسف البندري، مدير المدرسة العربية الإسلامية في كراتشي، بتاريخ ١٦ شعبان ١٣٨٢هـ.

الاستفتاء كان حول آراء فرد باسم " غلام أحمد برويز "، وجه إلى ابن باز الذي كان في حينها مساعدًا في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة للإجابة عليه. ويبدو أن المستفتي قد أورد نحو ٢٠ رأيا من آراء غلام أحمد برويز في الاستفتاء، وقد أجاب ابن باز عن ستة منها، وبعض هذه الآراء تستحق التوقف عندها والاعتبار بها بعد مرور أربعين سنة عليها. طبعًا ابن باز حكم على غلام أحمد برويز بالارتداد ووجوب التوبة عليه، حتى ولو توبة ظاهرية. وهذه النظرية تدلل على أن ابن باز كان يعتقد باستتابة المرتد. وإذا لم يتب وجب على ولي أمر المسلمين قتله وهذا شيء معلوم من دين الإسلام بالضرورة والأدلة عليه من الكتاب والسنة وإجماع أهل العلم كثيرة جدًا، لا يمكن استقصاؤها في هذا الجواب " (٢٢)

الملاحظة التي يجب الوقوف عندها هنا أن الشيخ عبد العزيز بن باز اعتبر كل رأي من آراء غلام أحمد برويز دليلاً على الارتداد، خاصة الرأي الثالث. إذ يقول أحمد برويز بالعودة إلى الآية ٥٩ من سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾. إن المقصود من إطاعة الله ورسوله، هو إطاعة الحكومة التي تتأسس أو تنشأ بعد عهد الرسول ﷺ. تلك الحكومة تأخذ موقع وموضع منصب الرسول ﷺ"

وكما نعلم فإن حدود وصلاحيات ووظائف ولاية الفقيه في الجمهورية الإسلامية الإيرانية مطلقة ومعادلة لصلاحيات الدولة، استنادًا إلى نظريات الإمام الخميني ـ رضوان الله عليه ـ وفي عصرنا هي نفسها صلاحيات الإمام والرسول (ﷺ).

وثمة رؤية تقول إن مثل هذه الحكومة وتلك الصلاحيات هي جزء من أركان الدين، حتى إن البعض قد ذهب إلى أبعد من ذلك وقال إن الذي لا يعتقد بولاية الفقيه لا دين له. ولحسن الحظ، فإن القائد (آية الله السيد على خامنئي) في رده على استفتاء ورد في الرسالة العملية" أجوبة الاستفتاءات " رقم ٦٢ قد وضع حدًا للجدل المتطرف المتعصب، إذ قال: إن عدم الاعتقاد بولاية الفقيه المطلقة في مرحلة غيبة إمام الزمان (عجل الله ظهوره) إن كان عن اجتهاد أو تقليد لا يوجب الارتداد والخروج من الإسلام»[٢٣].

رأي كلا طرفي البحث جدير بالاهتمام، الشيخ عبد العزيز بن باز الذي يقول بارتداد من يرى هذا الاستنتاج ويعتقد بهذه الصلاحيات، والآخر يرى في المقابل أن عدم الاعتقاد بمثل هذا الأمر قد يوجب الارتداد.

في اعتقادي أن أحد الدلائل على تخلف المسلمين ماضيًا وحاضرًا، أنه وبمجرد أن يقدم أحد المفكرين على طرح كلام جميل، أو أن يفكر في موضوع أو يقدم صورة جديدة عن مفهوم ديني، يتهم بأنه مصاب بالوسوسة النفسية والشيطانية، أو عميل للأجنبي.

فهل بهذه الكلمات والقراءة نريد أن نفتن جماهير العالم والمنطقة بمطر الإسلام والثورة؟

مفكر كبير مثل الكندي الذي يعد أول فيلسوف في الإسلام وأول فيلسوف عربي، وقضى عمره بالتفكير وكتابة الرسائل الفلسفية ويشذب الكلمات ويقيسها ويربطها بخيط العبارة، مثله في ذلك مثل الجواهري، وكان فيلسوفًا جامعًا وصاحب أثر ورأي في مختلف المجالات العلمية في عصره لدرجة الكتابة حول

تأثير الرياضيات في علم الطب، وبسبب معارضة الدولة للفكر، وبسبب عدم قبول المتوكل العباسي للفلسفة، تحول الكندي إلى واحد من المغضوب عليهم ونهبت مكتبته.

لقد وشى محمود وأحمد أولاد موسى بن شاكر بالكندي لدى المتوكل (٢٣٢-٢٤٧ هـ.ق)، فأصدر المتوكل أمرًا بجلد الكندي ونهب مكتبته ومصادرتها ، وبقي الكندي كالطير المذبوح يجهد لاستعادة الكتب الأمهات ومادونها.[٢٤]

ومع ذلك، فإن ابن النديم في الفهرست يورد نحو ٢٤١ عنوان رسالة للكندي.

وللأسف الشديد، وبعد مرور نحو ألف عام على هذه الواقعة فإن بعض الذين يقولون ويعتبرون أنفسهم من تلاميذ الإمام الصادق ومن التابعين والموالين لمذهبه، ينطقون بكلام وتصرفات دهرية على حد تعبير ابن أبي العوجاء في انتقاده للمفضل. ويعتقدون أنه عن طريق التشهير والتوقيف والطرد باستطاعتهم الوقوف بوجه تيارات الفكر والآراء. وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بالقول: ﴿ . . وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ (سورة الكهف، الآية ١٠٤).

والنموذج الأخير لمثل هذا الأسلوب والتصرف في مواجهة الذين يجتهدون ولهم رؤًى جديدة في قضايا دينية، تلك المقالة المطولة للأستاذ محمد رضا حكيمي التي نشرت في المجلة الشهرية " همشهري " في (آذر ماه ١٣٨٠).

وإذا ما كان الأستاذ حكيمي في مقالته "المذهب التفكيكي" ـ كما أكد بنفسه ـ أن الكثيرين قد شكروه على الكتابة حول الموضوع وعلى الخصوص فيما يتعلق بقضيتي " التعادل " و التآدب " المسيطرتين على كل المقالة؛[٢٥] فما هو الدليل الذي حدا بالأستاذ حكيمي في مقالته إلى اعتبار العقل وهو أساس الدين قد خرج عن جادة التوازن والأدب، وإنّ كان عنوان ـ العقل أساس الدين ـ يستحق نقاشًا جديًا، خصوصًا أنه تحدث بكلمات مثل كلمات الأستاذ فردريد ـ رحمة الله عليه ـ أو بأسلوب الصحف المعاصرة مثل:

١ـ وجهة نظر أو رؤية أو فلسفة كلمات ظهرت حديثًا وهي مثيرة للريبة.[٢٦]

٢ ـ راج مؤخرًا عبارة مريبة تماما هي " الرؤية الشخصية للمسائل الدينية أو الفكر ووجهة النظر" أى أن كل شخص ومهما كانت درجته العلمية في معرفة الإسلام له الحق في أن يكون لديه قراءته الخاصة للدين والكتاب الإلهي.(٢٧)

٣. " قالوا المقاصد السياسية بـ " لغة ثقافية"، جيد، لديكم مشكلة ولا توافقون على النظام، فقولوا ذلك بصراحة ورجولة وصرّحوا بالإشكالات المأخوذة على رجال الدولة ـ الذين من المفترض أن يبدوا التزامًا ولم يفعلوا ـ اعلنوها على الملأ حتى يعلم ويعرف الناس أنهم ليسوا القائمين على الدين " القديم " و" الصراط الأقدم "؟! (٢٨)

قبل ذلك، كان الأستاذ الحكيمي يرى أن القرآن والحديث (الكتاب والسنة)، والمعارف القرآنية وتعاليم أهل البيت يكفى دون أي اقتباس من أحد أو مذهب وبدون أية حاجة لأية فكرة أو نحلة، ويمثل المعرفة الإسلامية والقرآنية المستقلة المتوافقة مع سياق الفطرة والموجودة في أساس الاعتقاد الإيماني لدى كل الجماعات". (٢٩)

هل يعتقد الأستاذ حكيمي أن فكره ووجهة نظره يجب الأخذ بهما على أنهما مطابقان ومساويان للإسلام، وأن رأي المعارضين هو رأي مشكوك فيه ومعارض للنظام، ولا يمكن أن يكون له اعتبار في مجال الفكر والبحث؟

من الممكن أن يكون مراد الذين يطرحون موضوع اختلاف وجهات النظر، أو اختلاف الرؤية هو الحديث عن قراءة فلسفية أو قراءة علمية منهجية، ويقدمونها على أنها في الحقيقة هي التوجه إلى باطن آيات القرآن الكريم وروايات رسول الإسلام والأئمة المعصومين. ويتملكهم القلق والخوف من أن يعطوا صورة جافة ومضطربة وظاهرية عن الإسلام تدفع الشباب والأجيال القادمة للابتعاد عن الفكر الديني والإيمان والاعتقاد به.

إضافة إلى الدافع الإنساني والاجتماعي فإنه لا يمكنهم القبول بأن التأويل كما يعرفه الأستاذ حكيمي يساوي ويطابق التحريف.

إلى جانب ذلك، في مقالة " العقل أساس الدين " يتهم الأستاذ حكيمي القائلين بنظرية حرية الفكر الديني بالسعي للإطاحة بالنظام وأن نظريته هو هي التي تدعم النظام، وهذا الكلام متسرع وعصبي. فالأستاذ الحكيمي يعلم جيدًا أن الإمام الخميني هو مؤسس نظام الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وهو فقيه وأصولي ومفسر للقرآن الكريم، وقد استعان في تفسيره لسورة الحمد بالأسلوب العلمي، وقد كتب شرحًا على كتاب " فصوص الحكم " لابن عربي، وتحدث عن الإسلام الذي كان صدر المتألهين وابن عربي والسهروردي وابن سينا من حملة لوائه وذلك في رسالته المعروفة التي بعثها إلى جورباتشوف.

فهل يعتبر الإمام الخميني كذلك من الساعين للإطاحة بالنظام الذي هو مؤسسه؟ لماذا لم يقتصر الإمام الخميني في رسالته إلى جورباتشوف لتعريفه بالإسلام علي القرآن الكريم وروايات رسول الإسلام (ﷺ) والأئمة المعصومين عليهم السلام؟ من الواضح أن الإمام الخميني لم ير أن فهم صدر المتألهين وابن عربي الديني ـ اللذين ينتقدهما المذهب المحافظ بشدة ـ هو فهم مغاير للإسلام، بل كان يراه فهما مليئًا بالجاذبية والترغيب لكل بحَّاثة وعالم بالإسلام.

الملاحظة الأخرى الجدير ذكرها هنا، أن رفض الفلسفة والتفكير العلمي وحرية تعدد وجهات النظر العلمية ونفي التأويل ونفي الرأي ليس ظاهرة جديدة، وقد نقل الأستاذ حكيمي عن الأستاذ محمد رضا شفيعي كدكني قوله:" إن المذهب المحافظ هو من أحدث الافكار التي دخلت الساحة الإيرانية خلال الخمسين ٥٠ سنة الأخيرة ".(٣٠)

ومع أن الأستاذ حكيمي قد تظهر صوره في الجرائد في زي المفكرين والفلاسفة تارة أو الأولياء الصالحين تارة أخري إلا أنه عمليًا في موقف معارض للرؤى الجديدة وحرية الفكر، ومعارض للتصوف باعتباره نوعًا من الفلسفة الدينية، ويبدو والله أعلم أنه أحيانًا يخالف الشكلُ المضمون ويُناقض الظاهرُ الباطن.

مع هذا لا بد من توجيه الشكر الجزيل إلى السيد حكيمي الذي لا يصدر في كلامه عن حرقة ولوعة، ولا يحيل المناصرين للتأويل أو القراءات إلى المحكمة

ونزع اللباس (الديني)، أو يتصرف كتصرف خالد بن عبدالله القسري مع جعد ابن درهم.

لقد كان جعد بن درهم يعتقد بخلق القرآن، وقد قال مخالفوه ومخالفو التأويل إن هذا كلام اليهود ! وهو الأسلوب الذي يعتبره الدكتور على سامي النشار في كتابه القيم " نشأة الفكرالفلسفي في الإسلام " يرى أن هذا الأسلوب هو ما جرت عليه التيارات الفكرية والجماعات التي كانت تنسب أفكار مخالفيها إلى أعداء الإسلام.(٣١)

عندما أعلن جعد عن نظريته أو رأيه حول " خلق القرآن " بدأ رجال دولة بني أمية - ولا شك أن قلبهم كان يحترق من أجل القرآن - التفتيش عن جعد بن درهم من باب إلى باب، وقد كان جعد يعيش في دمشق، فاضطر للهرب إلى الكوفة، فألقى حاكم الكوفة خالد بن عبدالله القسري القبض عليه وألقى به في السجن، ثم اشتكت عائلة جعد إلى الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك: من طول مدة سجنه وضيق العيش والمشقة، فقال هشام بن عبدالملك، وهل مازال جعد حيًا؟! فكتب إلى خالد بن عبدالله القسري يأمره بقتل الجعد. وكان يوم عيد الأضحى، فأمر خالد بجلب الجعد إليه، وصلى العيد، وخطب وقال في آخر الخطبة: عودوا إلى منازلكم وضحوا وليتقبل الله منا ومنكم، إنني اليوم أريد أن أضحي بالجعد بن درهم، فهو الذي يقول إن الله لم يحدّث موسى، ولم يختر إبراهيم خليلاً، إن الله أرفع وأنزه من الكلام الذي يقوله الجعد، ثم نزل عن المنبر، ووضع رأس الجعد على أول درجة منه وذبحه. (٣٢)

مع أن هناك تفسيرًا آخر لكلام الجعد يخالف تفسير خالد بن عبدالله القسري، فالواقع أن الجعد كان يريد أن ينتقد ويبطل قول اليهود الذين يقولون بتجسم الله في حديثه مع موسى، أي أن الله لم يظهر لموسى بالصورة التي يعتقد بها بعض اليهود، أي بصورة مادية. والجعد بن درهم لم يكن يذهب إلى وهب بن منبه ليجلس إليه ويسأله من دون وضوء، وكان يفكر في التجسيد وهل أن الله لديه يد وعين ونفس، وهل هي شبيهة بأيدي وأعين وأنفس البشر، وهي

صفات حادثة؟ لقد كان يبحث عن جواب أو رد عقلي على هذه الأسئلة، ولم يكن الجواب الذي أعطاه المفكرون والمتكلمون الذي يشفي غليله، ولا الرد الذي أعطاه أيضًا خالد بن عبدالله القسري في يوم عيد الأضحى.

هذه الحادثة المرة والمليئة بالألم أنقلها حتى يتعظ منها مفكرونا وعلماؤنا علها تدفعهم للتفكير في نتائج كلامهم وتبعاته. وإنهم كمثل الملك الذي يخاف إذا أكل أحد أفراد الرعية تفاحة من بستانه، أن يعمد غلمان آخرون إلى اقتلاع الأشجار من جذورها.

إن مشروع نظرية المذهب المحافظ، رغم أنه يمتاز بأدبيات ومفردات جديدة نسبيًا، إلا أنه لا يعتبر جديدًا وقد أثار قبل ألف عام وإلى اليوم جدلاً بين الظاهر والباطن، التأويل والتقليد، العقل والنقل، والرواية والدراية، وإلى اليوم ما زال قائمًا. لقد كتب الدكتور السيد عبد العزيز الشبلي كتابًا بعنوان" العقيدة السلفية" يدافع فيه عن المذهب السلفي، وهو يحوي تقريبًا لب كلام وحاصل قول السيد حكيمي، وهنا يمكن تلخيص أفكار الاتجاه السلفي بالتالي:

١ ـ تقدم الشرع على العقل.

٢ ـ عدم تأويل النقل.

٣ ـ منهج الاستدلال، منهج القرآن. (٣٣)

فالسلفية تعارض وتنفي التأويل بشدة، وترى أن التأويل هو تحويل اللفظ عما وضع له في الأصل إلى آخر يخالف الظاهر ويتعارض معه. (٣٤)

إن موضوع الحقيقة والمجاز في الآيات القرآنية هو موضوع قديم يعود إلى القرن الرابع الهجري، ويرى البعض مثل ابن قيم الجوزية أنه لم تتم الإشارة مطلقًا إليه في القرآن خلال القرون الأولى (الأول إلى الثالث). يستشهد على ذلك بكتب اللغة التي تعود إلى تلك المرحلة، والتي لم ترد فيها إشارة عن الحقيقة والمجاز، وقد نقل عن ابن تيمية القول بأن:ليس في القرآن أية إشارة على المجاز، بل إن كل آيات القرآن حقيقة (٣٥).

ويورد الإمام الفخر الرازي، المتكلم الأشعري المشهور، والذي كان مخالفًا للفلسفة وابن سينا أيضًا، في كتابه "المحصول في علم أصول الفقه" الزاخر بالملاحظات الأصولية رأيًا مثيرًا للجدل ومحيرًا حول المجاز والحقيقة في القرآن الكريم.

والهدف مما سأورده من كلام للإمام الفخر الرازي هو دفع معارضتي التأويل وتعدد التفسيرات والرؤى إلى الحكم على الأقل كما حكم الإمام الفخر الرازي. فلقد كتب الإمام فخر الرازي يقول: لقد أتى المجاز في الخطاب الإلهي ـ القرآن الكريم، واكثرهم يقبل ذلك، مع أن أبو بكر داود الأصفهاني يعتقد بخلاف ذلك،. فمثلاً في الآيات: ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾ (الكهف، الآية٧٧)، و﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ (الفجر، الآية ٢٢)، يمكن إثبات ـ وبدليل ـ أن المراد منها لا يمكن أن يكون الظاهر، وهناك ضرورة لتأويل الآية عن ظاهرها وهو المجاز. والمجاز من أجل التحسين في الخطاب.

فعندما يستطيع الإنسان التوصل إلى المراد مباشرة من خلال الكلام الواضح والصريح،فإن الحافز أو الشوق للمعرفة لديه يتراجع؛ لأن الأمر عندها يصبح تحصيل حاصل. والحالة نفسها عندما لا يستطع استنتاج أى مفهوم أو معنى من الكلام. ولكن عندما يستطيع فهم بعض وجوه الكلام ويبقى البعض الآخر مغلقًا عليه، عندها يتولد لديه الشوق والحافز إلى استكشاف وفهم وتوضيح ما تغلق عليه من الكلام انطلاقًا من البعض الذي فهمه، وتتولد لديه لذة الفهم والتوصل إلى معرفة ما خفي عليه. لأن عدم فهم الجزء المبهم يولد لديه كآبة وحزنًا. وفي المقابل فإن إعمال العقل للوصول للدلالة المقصودة يجلب الفرح. ويرضي نفس الإنسان، وتزول همومه النفسية عبر البحث، إن التعبير عن المعاني بعبارات مجازية مفرح أكثر من الألفاظ الحقيقية (٣٦).

في بحث التأويل أيضًا، يشير الإمام الفخر الرازي إلى الآية: ﴿ هو الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ (سورة آل عمران: الآية ٧). في نقده للذين يعتقدون أنه يجب الوقف بعد عبارة: وما يعلم

تأويله إلا الله. وعليه فنحن لا نستطيع إدراك مفهوم ومعنى المتشابه. في حين يرى الإمام الفخر أنه من الممكن فهم المتشابه، لأن العلاقة بين طرفي الآية هو عام من جهة وخاص من جهة، وعودة الضمير على الله في الآية يمتنع عقلاً[٣٧]. واذا قبلنا القول بأن للقرآن الكريم ظاهرًا وباطنًا وحقيقة ومجازًا ومجملاً ومفصلاً ومحكمًا ومتشابهًا وتأولاً، فإن هذا القبول يوجب على الإنسان البدء في البحث والتساؤل.

والإمام الفخر الرازي يتوقف عند أهمية وقيمة التساؤل حين يشير إلى الآية المباركة: ﴿ .. فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ .. ﴾ (سورة النحل، الآية ٤٣). ويقول: من أجل أن يسأل الإنسان يجب عليه الاجتهاد ! فمن دون التفكر لا يأتي السؤال[٣٨].

إن أولئك الذين يعتقدون أن القرآن غير قابل للتأويل ولا وجود للمجاز فيه وليس له باطن، معنى ذلك إمكانية أن يخرج هذا الكتاب السماوي بسرعة من حياة المجتمع وذهن الإنسان.

من البديهي أن هؤلاء لا يقصدون ولا يهدفون إلى ذلك، غير أن نتيجة تفكيرهم ستكون على هذا النحو. فهل نزل القرآن الكريم فقط لمسلمي وأهل القرون الأولى للهجرة؟ وهل يجوز القول بأنه لا مجاز في القرآن لمجرد أن كتب اللغة لم تتطرق لموضوعات الحقيقة والمجاز ؟! لقد أكد المذهب الشيعي كثيرًا على الجانب العقلي، وقال بالباطن للآيات والروايات وقال بالتأويل. لذا يجب التنبه للمرحلة الجديدة من التوجهات السلفية التي أخذت نصيبها في عملية فهم الدين والحياة. وفي مجال الفكر والبحث فالواقع هو أن الفكر المتقن والرأي السديد يبرز ويصقل في إطار الحوار ويظهر مدى قدرته وعمقه وثباته، وكما قال أمير المؤمنين «على» عليه السلام: من اختلاف الآراء يتولد الرأي الصحيح والثابت.

الهوامش:

(١) الإمام الخميني، تفسير سورة الحمد، مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني، طهران ١٣٧٨ ـ ٢٠٠٠، ص ١٨٩ إلى ١٩٣.

(٢) صحيفة الإمام، مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني، طهران ١٣٧٨، ج ٢١، ص ١٤٩ إلى ١٥٢.

(٣) نفسه، ص ١٤٩ إلى ١٥٢.

(٤) نفسه، ص ١٦٠.

(٥) نفسه، ص ٢٧٣ إلى ٢٩٣.

(٦) نفسه، ص ١٧٠.

(٧) مجموعة آثار أفلاطون، ترجمة محمد حسن لطفي، رضا كاوياني، طهران، منشورات الخوارزمي، ١٣٧٥، ج ١، ص ٢٣٥ إلى ٢٥٨.

(٨) محمد مجتهد شبستري، هرمنوطيقا الكتاب والسنة، طهران، طرح نو، ١٣٧٩، ص ٢٣

(٩) مجموعة آثار افلاطون، ج ١، ص ٤٠.

(١٠) صدر الدين الشيرازي، الحكمة المتعالية، بيروت، دار إحياء التراث، ١٩٨١، ج ٥، ص ٢٠٦ و ٢٠٧.

(١١) المسائل ج ١، ص ٣٠٢ و٤١١، ج ٢، ص ٤٦ و٤٧، ج ٥، ص ١٦٣ و٢٠٦و ٢١٣ و ٢٨٩، ج ٦، ص ٤١٢، ج ٨، ص ١٠٠، ج٩، ص ٧١ و ١١٩ و ٢٢٨ و ٣٢٧.

(١٢) صحيفة الإمام، ج ٢١، ص ٢٢٠ و٢٢٦.

(١٣) ديوان الخاقاني الشيرواني، بجهد الدكتور ضياء الدين سجادي، طهران، دار زوار، ١٣٧٣، ص ١٧١ و ١٧٣.

(١٤) بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٤٩

(١٥) نفسه، ص ١٤٨

(١٦) نفسه، ص ١٤٦.

(١٧) نفسه، ص ٥٧ و ٥٨

(١٨) رسالة الكندي إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى، ترجمة أحمد آرام، طهران، سروش ١٣٦٠، ص ٢٢ و٢٣، وص ٦٥ و٦٦

(١٩) رسائل الكندي الفلسفية، بجهد محمد عبد الهادي أبو ريدة (مصر ١٩٥٠)، الجزء الأول، ص ٢٤٤.

(٢٠) نفسه، ص ٩٧ و٩٨.

(٢١) الأستاذ محمد رضا حكيمي، المذهب المحافظ، قم، مركز الدراسات الإسلامي، ١٣٧٣، ص٦٣.

(٢٢) عبد العزيز بن عبدالله بن عبدالرحمن بن باز، مجموعة الفتاوى والمقالات المختلفة (الرياض، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء ١٩٩٦) ج ٣، ص ٢٦٨ و ٢٦٩.

(٢٣) آية السيد علي الحسيني الخامنئي، أجوبة الاستفتاءات (بيروت، دار الحق،١٩٩٥) ص ٢٢ و ٢٣.

(٢٤) عبدالرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٤، الجزء الثاني، ص ٢٩٧. (٢٥) المذهب التفكيكي، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، طهران، ١٣٧٦، ص ١٤

(٢٦) همشهري الشهرية، آذر ماه، ص ٤١.

(٢٧) نفسه، ص ٤٤.

(٢٨) نفسه، ص ٤٤.

(٢٩) المذهب المحافظ، ص ١٨٧.

(٣٠) همشهري ماه، آذرماه، ص ٣٩.

(٣١) علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، (القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٧) ج ١، ص ٣٣٠ .

(٣٢) نفسه، ص ٣٣١.

(٣٣) عبد العزيز الشبلي،العقيدة السلفية بين الإمام ابن حنبل والإمام ابن تيمية،(القاهرة ، دار المنار،١٩٩٣ م) ص ١٠٢ .

(٣٤) نفسه، ص ٥٤ و ٧٢ .

(٣٥) نفسه، ص ٧٦ و ٧٨.

(٣٦) الإمام الفخر الرازي، المحصول في علم أصول الفقه، دراسة وتحقيق طه جابر فياض علواني (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٢ م) ج ١، ص ٣٣٣ ـ ٣٣٦.

(٣٧) نفسه، ص ٣٨٧ ـ ٣٨٨ .

(٣٨) نفسه، ص ٨٦ .